

شیطان بنتور

تفضل أمير الشعراء بان ينشر كتابه (شيطان بنتور) على صفحات
المصور اختصاصاً لهذا الفضل قبل أن يخرج الناس في صورة كتاب .
ونحن لبدا بنشر هذه القطعة الخالدة من الادب المصري ، راجين ان
يتم طبع الكتاب في أقرب حين ، ليكون في متناول الادباء في انحاء
العالم العربي ، فينبج للادب منهلاً ، وللمعلم مورداً ، وللمهذب مثالا ،
ولوطنية نموذجاً اعلى .

المحادثة الاولى

حكى المهدهدمني الانباء ، وشيطان بعض الشعراء ، قال أكثرت مخالطة الناس
حتى ندمت ، وأطلت النظر في الكتب حتى سئمت . واشتقت الى عبرة مرموقة موموقة ،
وحكمة من نفسها مسوقة ، آخذها ولو من سوقة ، لا مطروقة ولا مسروقة . فخرجت
الى الاهرام في وقت من أوقاتنا الموصوقة ، ويوم من أيامنا المختارة ، ذهب نهاره الا
لواخره ، وتناوب على الجو صاحبه وما طره .

تعرض الغيم فيه • للشمس في كل مسلك
تروغ منه قبدو • وتختفى حين تدرك
والأفق منه ومنها • كالطفل يبكي ويضحك

فبلغت فضاءها واذا ذهب الاصيل عليه يزهو آونة ، ويصدأ بالغيم آونة ، والشمس
صفراء في الأفق منكسرة الاشعة ، قد كادت ولما تفعل ، كأنها عين الاشقر الاحول .
فوثبت الى الهرم الاكبر ، وحططت فوق حجر ، ثم تقصبت النظر ، فكانت فاتحة
العبر ؛ وباكورة العظاات الكبر ، أن رأيت السياح حوالى الاثر ، يرتعون في الاصيل
ويلعبون ، وينزلون عن الابل ويركبون ، وقد ضفت عليهم ثياب الكبرياء ، وجروا
ذبول الزهو والخيلاء . فنضبت من رؤيتهم على هذه الصورة ، وعبشهم في القبور
بعد عبشهم بالجثث المقبورة : فقلت

وأيتها الحجارة الخالدة : اسخرى من هؤلاء كما سخرت من قبيز وخيله ، واستهزئى
بهم كما استهزأت بنا بليون وجنوده ،

ثم خرجت من الغضب فأبصرت ، وتألقت ما كنت أنكرت . وما زال الغضب
يعمى صاحبه ، ويضل رايكه ، ويريه صدور الامر ولا يريه عواقبه . ابصرت فرايت

الغادى والرائح ، والترجان بجانب السائح ، ولم أر من باك ولا نائح ، ولا مهيب بالجنبدل
والصفائح ، يحياه صدى من جانب القبر صائح . فرجعت في أمر القوم الى الرضى وقلت : أنما
يزورون قبور الفراعنة في مصر ، كما تزار قصور الملوك في هذا العصر . وذكرت ساعة
قضيتها في قصر (وندسور) منذ سنين ، والملكة يومئذ في الحياة لا تخرج الشمس عن
طرفي ملكها ، كأنهما حاشيتا النهار . فدخلت المقاصير وتنقلت في الحجر ، ورأيت فراش
الملكة وقد هجرته ، كما ينظر هؤلاء إلى مراقد الفراعنة ، وقد نقل ما فيها إلى دور التحف
وحيل بين ذلك اللؤلؤ وهذا الصدف . فرحم الله المصريين القدماء ، لولا هم ما ذكر مصر
الذاكرون ، ولا ظلت كعبة يزورها الزائرون .

مضوا والدور باقية وأودوا وليس شخوصهم بالموديات

فأذهبوا ولكن في اغتراب وما ماتوا ولكن في سبات

(قال) ثم وقفت أتأمل قبور الملوك العظام ، واذا كر عبث الأنام لا الأيام ،
واعجب للأهرام ، وهى من عمل الاسرة الرابعة وبيان المصرى في أول عهده بالحياة ،
وبداية دخوله في الحضارة ، كيف رسخت في الارض رسوخه في العلم ، ووقفت للدهر
وقوفه في الفن ، وكلما تأملت جزئى العبرة عن النظرة ، والعظة عن اللحظة ، فرأيت
التعيم كيف يزول ، والمحال كيف يحول ، والدولة كيف تدول ، والملك الكبير اليه
يؤول ، وبعث الموقف مني فقلت :

لما رأيت قبورهم كملت فما فيها لناقد

وكأنها نهد الثرى وكأنه مذ كان ناهد

بليت رواسبه ولم تبل العظام ولا المراقد

وهوت حوالها الهياكل والكنائس والمساجد

دخلت بمالك وانطوت دول زواهر كالفرائد

أيقنت أن المرء بعدا لموت بالآثار خالد

وأدمت النظر الى الاهرام لا لعظم في الجرم وفخامة في البنيان ، ورسوخ في
الأرض وطول زمان ، فان استعظام رؤية الأجرام من خلاق الصيان ، لكن كرامة
أرى فيها قدماء المصريين كما هم في الأعصر الأول ولما لم يكتملوا دولا أربع ، فلا أرى
الا صوراً واضحة وأشباحاً قديمة ، ثم أنظر فيها المصريين الأحياء ، وكأنما أنا ملهم في

مرآة محدبة مقعرة ، صور ممسوخة ، وأشباح معوجة ، وأعضاء كمختلط الاشلاء ، من ضياع التناسب ، وما اختلف الزجاج لكن هي الاخلاق ، تحسن وتقبح ، وتعلو وتسفل وتقوم وتعوج ، وتربك من قوم مالا تربك من آخرين . ما أبعد ما بين الاصل والفرع ، وشتان ما بين الوالد والمولود . ذلك قبيل شادوساد ، وأجار من البلى الاجساد ، ونشر سلطانه على البلاد والعباد ، وأخذ لآثاره من بعده ميثاقا من الآباد . حياته للوت وموته للحياة ، يعمل للذكر ويهيى للاحاديث ، ويترك للابناء ويعلم أن السير حياة ثانية ، في هذه الدار الفانية ، وان ليس الموت إلا سفراً من الاسفار ، ونقلة من دار إلى دار ولا يستوى ناء يعطل ذكره وآخر مذكور بكل لسان

ونحن معشر الابناء فيما نزعم ، وذراى المصريين القدماء فيما تتوهم ، أمة نيام لانعرف الملك إلا في الاحلام ، كأننا ولاية اليهود ، شابوا وآباؤهم قيام ، يومنا يوم العاجزين ، وغدنا غد النياسين ، وأمسنا لا للدنيا ولا للدين . معنى الحياة عندنا شيء باطل ، وطرفاها نعيم زائل ، وماهيتها أيام قلائل . لا ندخر صالحات ولا باقيات ، ولا نرجو علوا في حياة ولا نلمات ، يترك أحدنا لولده من وجده ، ولا يترك لهم من مجده .

قال الهدهد : وما لبثت الشمس ان غربت عن بلاد وطلعت على بلاد ، فآفاق في مهرجان وآخر في حداد . فحدثت نفسى بالانثاء ، فرارا من وحشة الظلماء . لكني ما هممت حتي شعرت بانتفاض طائر من الجوارح ، وسمعت هاتفا يقول : يا منادى الحجر ، ومناجى الأثر ، أخطأتك مصدوقة الخبر ، وغابت عنك أمهات العبر . هلا قلت في شكوى الحال ، ونجوى هذه الاطلال :

يا أيها الهرم المنحوت من زحل ◦ صب النحوس علينا أنت والزمن
هو حواليك ملك لا قيام له ◦ وغيت في ثراك الأربع المدن
وأمسك الهاتف عن الكلام ، فالتفت مذعورا لعل أرى على المكان شبح انسان
او خيال شيطان ، فلم أر غير نسر ، مستجمع في وكر نسج عليه الدهر ، وهو يرنو
بصفراوي كالنبر ، في كليهما انسان كنقطة من حبر . فدنوت منه وتأملت فيه ، وإذا
هو قد وهن منه العظم وتناثر الريش من الكبير ، وشد منسره إلى ساقيه بالسباب من

الهرم ، وأكل على جوجته الزمن وشرب القدم . فقلت لعله نوح النسور ، او بعض ما حمل نوح معه من الطيور . وابتدرت خطابه فقلت : —

• سلاما أيها الشيطان ، ان كنت لبد لقمان ، فاني هدهد سليمان ، قال النسور واستضحك . افتريت على النيين والطير ، واتحلت لى ولك ما للغير . أنا آدم الشعراء ، ولا اطراء ، وأول من نطق بالقافية الغراء ، فوق هذه الغبراء ،

قال الهدهد : وكنت لم افقه ما رمز اليه ، ولم أعلم مراده من بيته ، فبشرت نفسي وقلت شيطان قديم ، فلا أعلن منه مالم أعلم وفوق كل ذى علم عليم . ثم قلت اخاطبه : • الايام ايها النسور مدارس الاحلام ، ولا يستوى في العلم كهل ولا غلام ، فلا أستحي ان أسألك من أنت ، فقد استبهم على ما بينت ،

قال : أنا من سميت في قريضك ، وكرمت في شعرك ، وبعثت في قوافيك ، فضل لك لا أنساه ، وما كنت تراني لولاه . قلت

لئن صدقت مزاعمي فانت الروح الاكبر ، والشيطان الأشهر ، والنسر المعمر ، بتتور شاعر الملك رعمسيس ، وحامل لواء البيان في طيبة ومنفيس . قال إنه أنا واني بك لقرير . كنت أراك تسمع لواعظ الدهر فوق هذه المنابر ، وتجمع الخبر والخبر عن ذلك الملك الغابر ، والسلطان الغائب الحاضر . وجدير بأقدم المقابر ، ان تعظ الزائر والعابر . فهمست في اذنك بالبيتين ، أريد ان اريك مالم تر عين : انظر كيف ترى . منف ، ؟ قلت أطلال بالية ، ورسوم عافيه ، عندها قرية كبعض القرى ، لا تكاد تحسب من الثرى . قال فكيف . عين شمس ، ؟ قلت مزارع ورمال ، لاجلال عليها ولا جمال . قال فانظر «الفسطاط» كيف تراها ؟ قلت بيوتات واديره ، وتلال مستكره . قال فما هذه البلدة الزاهرة ، والروضة الناضرة ، والدرية السافرة : ؟ قلت مدينة القاهرة . قال لمن هي : ؟ قلت لغير أهلها . قال هي اذن في حكم المدن الغابرة . عواصم أربع كن مقار دول ، وكراسى ممالك ، وقواعد حكومات تغير أحداهن الشمس بأبهة الملك ، وعظمة السلطان : حضرت الاهرام يومها وأمسها ، وشهدت مصرعها وكانت رمسها ، فاسأل ربك لقومك ان يكفهم نحسها . قال الهدهد : فاطرقت أنامل في معاني هذه الكلم الجوامع ، واندبر مغازى الحكم الروائع ، وانا أستعرض كرة الارض في خاطري ، واقلب صفحات التاريخ في فكري ، فلا أجد لفضاء الاهرام مثلا فيما وصفه النسور عليه ، الى ان اخرجني من اطراقى بأن قال :

أرى الهدهد بين عبدة جلت ، حين تجلت ، وفكرة في المدائن الأربع كيف
تولت . فهل لك في كلمات تمثلك وقومك في الظلمات ، وتريك الامم في حال ذهابها
كيف ينقصها الآلهة من اخلاقها وآدابها اقلت ، لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا ، انى
اراك في ضلالك القديم . قال قطعت حديثى لأمر لا يعينك ، لك ما تعبد ولى ما عبد ،
ولا يزر الذر و زر الهدهد . فان كان لك في الصحة فعلى ثلاث . ان لا تجرى الأمور على
هواك ، وان لا تنظر فيها بمقتضى طباعك ، وان لا تأخذها ولا تسأل عن اسبابها . فهذه الثلاثة
تخرج من العلم الى الجهل ، فكيف تخرج من الجهل الى العلم ؟ قلت ذلك لك يا شاعر الآلهة ،
فأنجز الآن ما وعدت . قال هلك الفراعنة وخلت الاسرة منهم وذهبت دولهم ، ونبشت
قبورهم ، وعرضت جثث عزت عليهم ، على الناس . ماتمهم بينكم معاشر المصريين
قائم لا ينفض ، وما مقعدكم منه إلا كالمعدة تبكى ولادمع ، وتندب ولا حزن ، وتهتف
بما لا تعرف من أخلاق الميت وصفاته . وسنة سارها في حياته . يفخر أحدكم بالعظم
الرميم ، ويتحلى في حديثه بالمجد القديم ، ويسر — وهو عطل من الغنى عديم — بما بلغ غيره
من اليسارة والنعيم . فاذا ذكر المصريون القدماء ، رفعت الأنوف للسماء ، وزعمتم
أنكم سلالة الفراعنة العظام . لكم التاجان وعرشكم على الماء . واذا جرت أحاديث العرب
قلتم ينذا أقرب النسب ، ولنا ما تركوا من حسب ، وما هو إلا سبب قطعتموه ، ودين
ضيعتموه . ولسان عربى بالعجمة بعتموه . واذا سمي جد الأتقياء ، وواسطة عقد
الانبياء ، كنتم كلكم لآلئ الشرف ، وما خرج قط خزف ، من ذلك الصدف . واذا
نصر الترك في حرب ، وتركوا دويا في الشرق والغرب ، كنتم السيوف والا كف
والضرب ، وما ذقم لها من حرب ولا كرب . واذا مات ملك ليس منكم ولستم
منه ولا يسأل عنكم ولا تسألون عنه ، وخلف لقومه سيرة تسير كالأمثال ، وخلى
مفاخر لن تبيد ولن تنال ، كنتم المؤننين الشعراء ، لغيركم الميراث وعليكم الرثاء .

قال الهدهد : وبيننا أنا في الاصغاء ، آخذ الحكمة الغراء ، عن آدم الشعراء ،
اذ قطع الحديث ، وتركنى مفكرا فى كل ما هاجبى ذكره من قديم حديث . ثم صرفنى
على أن التقيه فى منف أصيل الغد ، وان غدا لناظره قريب .

المحادثة الثانية

قال الهدد . فأقلعت للطيران ، أوم عشى فى حلوان ، وأنا كمن مر به غرام ، على منازل الآرام ، يتلفت قلبى إلى تلك الأجرام ، ويعز على نفسى أن تفارق الأهرام . ثم جاشت فى صدرى هواجس ، وامتلاً خطرات من الوسوس . فتمنيت على فئة غير هذه الفئة ، وأملت من حكام مصر بعد مئة ، أن يتخذوا من الأهرام مقابر ، للنفر الانفعين الأكابر ، فيدفن فيها الجليل والعزیز ، كالبتيون فى روما وباريز . أمنية إن شئت عدها سخافة . وإن شئت قل حديث خرافة .

من لى بان تجعل الأهرام مقبرة • كالبتيون لأهل الفضل والفضل
مفتوحة لوفود الأرض قاطبة • يزورها الناس من شام ومن يمن
مغيين من الأجلال فى جدث • مدرجين من الأعظام فى كفن
مسطورة بمذاب التبر فوقهم • آثارهم والذى أسدوا من المن

تخلت ، ثم خلعت الأمر قد تم ، وأعلنت الحكومة مشيتها فيه وصدر الأمر العالى به ، ولم يبق إلا العمل بموجبه . فأنشئت الأضرحة الفخيمة ، فى تلك الحجر القديمة ، وأقيم الحراس على أبواب الأهرام ، وكتب على مداخلها بماء الذهب لعطاء الرجال شكر الأوطان ، وقيل هذا القبر فاين الميت ؟

قال الهدد : خطرات شاعر وأمنية شيطان ، فمن حضر بعده تحقيقها فليذكره ، ومن علم بها ولم يرها أبرزت من القول إلى العمل فليعذره . ثم بلغت عشى فتمت ناعم البال مقتبلاً بما وعدت من لقيا النسر ، كأنما وعدت ملكاً كبيراً . فلما أصبح الصبح قطعت نهارى متمللاً حتى الأصيل ، وأنا لا أدرى ماذا عنى النسر بمنف ؟ أهذه القرية أم تلك المدينة ؟ وهل موعداً منفيس أم ميت رهينة ؟ حتى إذا ذهب معظم النهار ، طرت إلى النيل أريد أن أعبره فوق سارية من معدية ، فلما شارفته ، رأيت ما ملئت منه تعجباً وتحيراً . رأيت شاطئين يتغايران وظيفتين تختلفان . هذه تلوح موحشة كأنها قبر ، بمكان قفر . أرض على الطبيعة ، وفلاح على الفطرة ، وجيئة لغير مطلب ، وذهاب فى غير مغنم ، وزرع للفلاح انباته ،

وللتاجر ثمراته . وهذه تموج بمعالم العمران ، وتجلى في زخارف الحضارة ، وتدفق حياة ، وتوثب وجدانا . فوقفت أنامل هذا المرأى البهيج ، والمنظر العجب ، والمشهد البديع ، وأنا أتهم الخيال ولا أتهم الحس ، ولا أبرى نفسى من سحر أو مس . وقد أنساني الدهول ذكر ما وعدنى النسر أمس . أنظر إلى النيل فأرى المجاديف تنتهب مياهه من تكائر السفن لديه وتلاقى الزوارق عليه ، مشحونة بالبضاعة ، مملوءة من الجماعة فكأنما أنظر إلى السين أو الرون أو الدانوب . فذكرت عندئذ ما قاله نابليون لجماعة من جنده في مصر ، قد مر بهم فرآهم ينظرون إلى النهر ، وسمعهم يتساءلون : . أهذا هو النيل الذى تشيد الكتب المقدسة بذكره ، وتبالغ الأجيال في قدره ؟ إن السماع به خير من رؤيته ، فاقرب منهم وقال : . انه لا يعوز النيل إلا خمسون عاماً ، ثم يبدو لكم كما تصفه الكتب المقدسة أو أجل : . فقلت فى نفسى : لئن زعم نابليون أن مصر لا يقصها إلا التمدين ، ولا بد من أن تناله على يد الفرنسيين أو غيرهم من الأمم المتمدنة ، فقد مر مائة عام لا خمسون . فما بالى أرى هذه الضفة بحالتها التى رآها جنود نابليون عليها ، وأرى لدى هذه نعيما وملكا كبيرا ؟

وبينما أنا فى التخيل تارة ، والتأمل تارة ، والنوم مرة ، واليقن كرة . بصرت بزورق يقترب منى ، ويجريه عصبة من المجدفين فى الزى المصرى القديم ، كما تمثلهم لنا الآثار ، وقد نهض فيه رجل كأنه المثال المنصب رونقا واعتدالا ، وسكينة ومهابة ، وهو مكشوف الرأس لابس ثياب المصريين القدماء كذلك ، فأشفت من رؤيته الزورق ورجاله لأول وهلة ، وتحفزت للبطار فصاح الرجل بى يقول :
إلى يا هدهد . إني أنا النسر ، فلا تخف ولا تجزع . قلت وما بذلك يا مولاي ، وما هذه الحال ؟ وهبني جئت لك فأين تريد أن تجعلى ؟ قال تقدم ثم تكلم ، فطرت من فورى إليه فتلقتانى بكلتا يديه ، ثم رفعني فوق كتفه ، وقال هذا مكانك ، فاستقم فيه ولا يكثر من التلفت والاتفاض فتؤذيني . قلت سمعا وطاعة يا مولاي . عندئذ أشار إلى الملاحين ، ان ينثوا بنا راجعين ، فسالت أيديهم بالزورق فى نهرسرى به الجلال وخط عليه الجمال ، تتلاقى السفن فيه كالجبال ، تنوء بالبضائع والغلال ، وتفيض من الرجال والأموال . فسالت النسر لمن هذه الأرباح يا مولاي ؟ لقد أذكرتنى كنوز سليمان

عليه السلام ، وجواريه المنشآت في البحر كالأعلام ؟ قال هذه رعية مولانا الملك
رمسيس ، تروح وتغدو بين طيبة ومنفيس . ناهضين بالمناجر الجسيمة قائمين بالأعمال
العظيمة تجري السفن بهم ليل نهار ، بين شاطئين كلاهما محط لرحال التجار . قلت
وإلى أين تمضي في الآن يا مولاي ؟ قال ألم أقل لك موعدنا منف وها نحن قادمون
وهذه معالمها تبدو وتظهر ، وتلك بجاليها تضي . وتزهر ؟ فأخذني الدهش وصحت : الله
أكبر ! فأنكر النسر على صيحتي وقال ألم أزدبك بالأمس ؟ فهلا دار يتنافي في دارنا
وأرضيتنا في أرضنا ؟ قلت وما عساي كنت أقول يا مولاي ؟ قال كان أولى بك
أن تسكت . أو تقول الشمس كبيرة وحفيدها رمسيس كبير . قلت لا أعود لمثلها
يا مولاي فهل لي أن أرى حفيد الشمس ذاك ؟ قال ستراه وتسمعه . فلا تعجل ولا
تؤذني بأسئلتك .

ثم استقر بنا الزورق ونالت أقدامنا منفيس ، فاذا بها تحلت من الزخارف بكل
نفس ، وتحلت نخثال في حلل البهاء وتميس . حيث التفت رأيت حولي عزازة وعماره ،
وثرؤة ويساره ، وصناعة وتجاره ، وجاهاً واماره ، وجنود البر والبحاره ، من كل
زى وشاره . فلم أتمالك أن اغرورقت عيناى بالدمع فالتفت النسر إلى وقال ، أدمعة
سرور وفرح ، أم عبرة أسى وترح ؟ قلت بل كلتاها يا مولاي . فلئن سرنى أن
أرى هذا المجد لمصر أولاً ، لقد سامنى أنى لا أراه لها أخيراً . قال لو أن فوق كل
شبر من أرض مصر . هدهداً ، يملؤه دمعاً لما اغني ذلك عنها شيئاً فعليك بالتأمل
والاستقراء . قبل البكاء والاشتكا . والتبصر والاعتبار ، قبل النحيب والاستعبار .
نكفكفت دمعى وقلت لا يكون إلا ما أمرت يا مولاي .

قال الهدهد : ثم مررنا بهيكل يأخذ العين ، ويتملك النفس ، ويأسر الخاطرة .
ويستوقف اللب قبل الناظر . فتوجه النسر وجهته ثم دخل بين حراس ينحنون له
تعظيماً واجلالاً ، وكأن يوفونه تحية واستقبالاً . وهناك جعل يطوف في حول
القواعد والأركان ، ويرفع بصره إلى دعائم البنيان ، ويتنقل في من مكان ، ويذهب
في صعداً وصيباً في حجر غالية غالية ، ومقاصير حالية ، من عيب خالية . منها الداجي

المظلم الحالك، وبعضها منور للشمس اليه مسالك، وهو يقول: هذا يا بني الهيكل الأشهر، بيت (فتاح) الآله الأكبر، حامى هذه المدينة، وملبسها الأمن والنعمة والزينة. تنقل معي من حجر إلى حجر، وصل معي من أثر إلى أثر، وأنعم النظر في هذه النقوش والصور، ترها في ضمائر الجفن أدق من الخواطر والفكر، وما صنعت في نور الشمس ولا في ضياء القمر، لكن في ضوء سراج ضئيل غير وهاج. ثم تأمل في الحجر بجانب الحجر كأنهما واحد، انقسم على نفسه شطرين.

انظر إلى هذه الجبال كيف قطعت، وإلى الأساس كيف وضعت، وإلى العمدة كيف رفعت، وإلى الزخارف كيف جمعت. هل ترى في جميع ذلك إلا معرفة في العلم، ودراية في الفن ومهارة في الصناعة؟ وغير أحكام في الصنع، واتقان في العمل، ورغبة في البناء، وهمة عالية في الأمر وذكاء فائق في الأمور، وطاعة واجبة للملك على الرعايا، وعدالة مفروضة للرعايا على الملك؟ وهذه يا بني أسس الآداب وروس الأخلاق، وقوى الحياة في الأمم، وسر نجاح الشعوب.

قال الهدهد. وكنت أراعي النسر وفكرتي في الملك، أتمنى أن أراه مرة واحدة، فتأجبه بذلك فغضب من هذه المفاجأة وقال: الملوك أيها الهدهد في كل مكان من ممالكهم، إذا تغيبوا حضرت ما أثرهم، وإذا احتجبوا اسفرت مفاخرهم. فحيث نقلت القدم في هذه العاصمة حدثك عز الملك عن الملك، ووصفته لك هذه الدولة الكبرى كأنك تراه. على أني سأنبئك سؤلك واجعلك من رمسيس بحيث تسمع وترى، فلا تعجل على ولا تكن كمن يزورون الاستانة ولا أرب لهم إلا حفلة السلام، وإذا قضوا أربهم من حضورها رجعوا إلى أوطانهم متبجحين بما لم يعلموا من أهبة ذلك الملك وعظمة ذلك السلطان.

قلت أفيرضيك أن أكف عن السؤال يا مولاى؟ قال أسأل ما شئت إلا الصغائر فإنها تقتل النفوس، وتطفئ نور العقول، وما اشتغل بها شعب إلا هلك حيا.

إن لرمسيس وجهها كبعض الوجوه، وجسمها كسائر الاجسام، لكن إذا وقفت على شيء من بسطة ملكه؛ وامتلات نفسك مهابة من سعة دولته؛ ورأيت آثار نعمته على رعيته، ثم لقيته بالذات لقيت آلهة في زى أنسان، تنحسر في جلالته العينان.

ويحقق لأدنى لحظة منه الجنان، قلت مررنا في بجيتنا الى الهيكل بعائر شتى وأبنة تشيد،
وهيا كل تعمر، فكنت أرى العمال صنفين، والصناع فريقين مختلفين، فما شرف
من الاعمال وكان للعقل والرأى معظم الاثر فيه، تولاه المصريون بأنفسهم
وما خسر منها وكان شاقا، يشترك فيه الساعد والجسم كعمل الطوب وجرا الاثقال، قام به
طوائف من الناس، زرية أزياءهم، مختلفة صورهم، مسودة وجوههم، فمن
هؤلاء يا مولاي؟

قال غرباء أسروا في الحروب وجرى بهم الى مصر فأرواحهم مباحة للملك ينهب
منها ما يشاء، ويسخر من استبقى فيما يشاء، ويجود ببعضها على قواد جيوشه الذين
جنوا معه ثمر الوقائع، وشهدوا بجانبه المعارك والمعامع. قلت عجبا لكم معشر الآباء
تبلغون هذه المبالغ من المدينة، وتأخذون بهذا النصيب من الحضارة، ثم تقسو
قلوبكم فهي كاللحجارة، أو أشد قسوة؟ فلو اطلع الافرنج خلفاؤكم في الارض اليوم
على سيرتكم هذه في معاملة الغريب والأسير، لأنكروها عليكم إنكارا، ثم لولوا
منكم فرارا. قال يبقى الحيف، ما بقي السيف؟ وليس ما نسبت الى أصحابك من
الرحمة المتناهية، وعزوت اليهم من الفلسفة العالية، الاضلة من حلك، وقلة في علمك.
ينكرون على ملوكنا أن يلغوا من ليس من دينهم من الأمم وما أشبههم في
ذلك بادوارد السابع يوم ذم المذهب الكاثوليكي بمسمع من الاشراف، أتباع هذا
المذهب. يرموننا بفرط البكراهية للغريب واقتناء الحقد له، ولنا في ذلك اعذار
مقبولة. فابششنا في وجهه قط، ولا استئمتنا اليه مرة، الا طمع في ملكنا، وافسد
علينا أمرنا. على أننا علنا الأمم من بعدنا شرع الوطنية، وعرفناهم كيف يطول
عمر الدولة عند قوم، وتمتد برهة الحكم بينهم، إذا هم اعتمدوا في جميع أمرهم على
أنفسهم وضرخوا على يد الاجنبي أن تعبت في شؤونهم. ولئن بالغنا للغرباء في
سوء المعاملة، فلنا من موقع بلادنا الطبيعي عذر واضح. فما في مصر الا سهل
سهل غزوه والاغارة عليه، وواد مكشوف للأبصار الطامحة اليه، فلو لم يسهر عليه منا
الساھرون، لما لبث في قبضتنا طول تلك القرون

وما أسير الحرب عندنا بأشقى من أسير الاستعمار عندهم. يزرع لهم ويحصدون،
وينبئ لهم ويسكنون، ويسهر عليهم وينامون. ويفتح لهم البلاد ويمتلكون، والى

بعض هذا ينتهى الشقاء والصغار والهنون . قلت يكاد علمك يسع الأشياء كلها يا مولاي
فلو علمت ما مراد الملك رمسيس من مواصلة الغزو ومتابعة الغارة والخروج من
حرب والدخول فى حرب ، ومنزله بين الملوك الغابرين منهم والحاضرين ما لا ترى
أبصارهم خلفها مطرحا ، فهلا أقر السيف وحقق الدماء ، فقد ملك الأرض فهل يريد
أن يملك السماء ؟ قال السيف يابنى يعلى السيف ، والدول اذا كبرت وعز مقامها
وتغلبت وعرفت الجاه والنفوذ جد بها الحرص على البقاء ، وطمعت فى المزيد من
الارتقاء ، مخافة ان تقف فيدركها اللاحقون ، او تتمهل فيفوتها السابقون . وقد
جرت العادة بين الناس أن الضعيف لا يزال يرى القوى بالبغي حتى يصير ذا قوة
مثله ، فيطغى مثل طغيانه ، والفقر لا يزال يتهم الغنى بالجشع حتى يثرى فيصبح هو
الأجشع . وليس ما ترى من رحمة الناس بالبوير (١) وما تسمع من ذمهم الانكليز
المعملين السيف فى جنوب افريقيا منذ عامين ، إلا حسدا لا ينفع البوير ولا يصغر الانكليز .
ولو أن إحدى الدول مكانهم ما كان شأنها الا شأنهم . على أن الفتح إذا نفع القاهرة
مرة ، نفع المقهور ألف مرة . فرمسيس انما يخرج الأمم من الظلمات الى النور ، فيفك
عقولهم من عقالها ، ويشفى نفوسهم من ضلالها . ولولا فضل المصريين على أهل
العصر الأول ما قامت للأحياء دولة ، ولا اجتمع للعبرانيين أمر ، ولا انعقد
للاشوريين لواء .

سرى نورهم فى الأمم المجاورة ، وامتدت حياتهم الى الشعوب المعاصرة . وهكذا
سنة الدهر فى الناس ، أو اخر يرثون الأول . ودول تبني على انقاض دول .

قال الهدد . فعذبت مقالة النسر فى نفسى ، كأنها لفظ الشفاء على لسان طبيب ، وقلت لقد
أخرجتني من يأسى يا مولاي . وعلمتني من مستقبل مصر ما لم أكن أعلم . فتهدبت ووروقا تجمع
كل أمة جوامع شتى من لغة ودين وجنس وأمل ويأس ، وسراء وضراء ، وأتم لا تعرفون
غير جامعة الموت تجمع الأعداء . ثم قطع الحديث ، وقال هذا شئ متحدث فيه بعد ، فلبق فيما
نحن فيه من اجتلاء المناظر والمشاهد ، ومناجاة المعالم والمعاهد . وقلت ذلك أنفع لى

(١) اشارة الى حرب جنوب افريقية بين البوير والانجليز التى اشتهر فيها القائد

دوويت البويرى المعروف

يامولاي، فما هذا التمثال القائم بين مقاصير الآلهة من الهيكل وبين مجلس الملك ومنصب عرشه، فاني أراه كمون بن عتق في ضخامته التي يزعمون . فمشى النسر إلى التمثال وجثا لديه ثم نهض وقال . فرغ الملك من حروبه التي تسير كالأمثال ، وأمن تخوم ممالكه ، وأخذ بالثقة من المستعمرات الواسعة ، وفرق جيوشه في البسيطة بعز زون منها آية الملك ، ويحمون أطرافها ، وأصبح من ثبوت الدنيا له واستقامة الأمر في يده بحيث قلت في وصفه ومدحه .

رمسيس ياملك الدنيا وواحدها وبضعة النور وابن الكوكب الأحده
الشمس مثلك بعد اليوم . اولدت والشمس مثلك قبل اليوم لم تلد
فان تكن في سرير المجد خالدة فان عرشك مرفوع إلى الأبد
حتي إذا فرغ من تشييد مملكته ، والأحتياط لحفظها ، وجعلها بأمن من الحساد والأعداء ، فكر فيما يخلد اسمه ، ويؤبد ذكره ، ويكفل لتاريخه الدوام . فبنى المدائن وأنشأ في كل واحدة منها هيكلا خاصاً بآله أهلها الذي يعبدون ، وسور هذا الهيكل القديم بالأعمدة التي تراها محيطة به ، وليس أنعم ولا أضخم ولا أجل في الاعين منها . ثم أمر أن تصنع صورته معظمة وتجعل في الهيكل ، فعمل له هذا التمثال وطوله ثلاثون ذراعاً ، وهو من عمل الأسرى وحدهم : وقد عني الملك بأمر ذلك فرغب أن يكتب أنه « لم يعمل مصري في هذا التمثال » قلت وفيه هذا التبرؤ يامولاي ، ولو أنه من صنع المصريين لكان بالملك أليق ، ولكانوا به أحق ؟ قال أن رجلاً يرفع أكبر دولة في الأرض ، ويقهر أربعين أمة ، ويضع حدود مملكة أنى شاء ، لا يؤخذ بكبيرة . فكيف ينتقد في صغيرة ؟ قلت لأنك في دفاعك هذا عن الملك ، أشعر منك في مدحه . قال انما أدبت بعض حقه .

وهنا غلب النعاس على النسر ، فجعل موعد الهدهد ميدان الملك في أصيل الغد

(يتبع)

